تأملات

لا أدرى يا فتاتى كنه نظراتك، ولا أخدع النفس بتصوراتى؛ إنما بعينيك سواد يغمر ضوؤه فؤادى، ويذيب حره جنانى. أسمع صوتك المتهدج تحاولين أن تخفى عليه المستحيل من ثباتك، وأحس خفقان قلبى يعلوه هذا الشحم واللحم، فتخفى ضرباته على وجدانك.

تضربين يا فتاتى فى حدود الثلاثين، ولما تكادى، وأعبر أنا السير والأربعون من ورائى؛ فبيننا ما يسوغ لك منادانى بيا أبى. وكم يحمل هذا النداء من عطف ومن مرثية! وكم تتجلى فيه الحقيقة المرة، وتشرق به النفس الظمآى إلى فيض الحب! ... كم ردنى إلى اليأس قدر ما أرتد إلى الأمل... لكن، يا فتاتى، قد آثرتك بحواسى، وهى تهتف بك وتهيب، فهل تستجيبين؟

وكيف تستجيب يا صديقى، وقد كان ما مضى كله عبثاً فى عبث... لقد فتحت عينىّ عليه، وكانتا مغمضتين، فروعنى ما رأيت: رأيت سداً هائلاً يقوم بينى وبينها؛ هو فرق ما بينى وبينها من سن... دروجى إلى الكهولة، وخطرها فى مطارف الشباب هو الذى أترع قلبى غماً، وأزال الغشاوة عن عينىّ...

رأيت الأوهام بعين الحقيقة تمضى فراراً لا تلوى على شىء. وكأنها خشيت أن تلقانى وجهاً لوجه، فأبصق من مر الحقيقة على وجهها. خجلت أوهامى فانحسرت عن بصيرتى، وخلفت أثرها فى الكآبة التى لا تبرح تلازمنى

ظلمتنى يا فتاتى حين أرخيت لى فى حبل الأمل فتعلقت به وشددت عليه، وتشبثت وكأنى أتشبث بالحياة، وأية إشاءة حادة كانت تكفى لقطع الحبل لأنه من عمل الشذوذ ومجانبة الحقائق، والعمى عن الحدود. لكن حبلى لم ينقطع بشىء حاد. نظرة لا حياة فيها، لأنه لا اكتراث فيها، كفت لأن تقطع حبل آمالى بعد إذ كانت تحييها فى سالف الأيام نظرة أخرى. وفتور أدى إلى التثاؤب وأوهى منه، طعننى فى الصميم فكانت الصرخة التى فتحت عينىّ على حلمى المنكوب

بلى يا فتاتى! لقد نكبت كما لم ينكب غافل، وعاودنى الرشد غير رشيد، وحزت الحسرة فى فؤادى ولن تزال تحز إلى الأبد

كنت ماثلة لعينى، فى اليقظة وفى المنام، فى السر وفى العلن، وخلياً ومشغولاً، ومغتبطاً ومكموداً

ومثلت لعينى بعد الخيبة أجلى ما تكونين، وأنضر ما تكونين، تعلو شفتيك تلك الابتسامة الحائرة فتزيد فى حيرتى وتثير من حسرتى

شربت المر ليعوضنى من حلوك، وألزمت حواسى حدها لأنزر من طيفك. ثم عمدت إلى خيالى وقد خفت على نفسى الخبال فمسحت منها صورتك إلى حين. ثم ضبطت خيالك متلبساً بالسطو على رأسى المضطرب وأعصابى المحطمة وليس بها لمثلك غناء فأقصيته، وأغمضت عينى دونه، وذهبت ألتمس السلوان

وكيف تسلو يا صديقى، بل كيف تجبن عن احتمال الذكرى وتهيب وجه الحبيب؟ أتراك خشيت الألم ولوعة الهوى، وما الهوى من دون لوعة وألم؟ أتريد المتعة الرخيصة؟ إنك إذن لأنانى أو عابث؛ وإنى لأعيذك يا صديقى أن تكون هذا أو ذاك

فليغش نومك طيف الحبيب، وذهنك رسمه؛ وليكن تفكيرك فيه وعيشك به وله؛ وليكن بعد ذلك ما يكون. فالنار التى تتأجج فى قلبك، والجرح الذى يحسه صدرك، يطهران نفسك التى بين جنبيك. وما هو إيثار الروح على الجسد إن لم يكن فى تعففك وعفافها، واطراح الإغراء من جانبك وجانبها

ليكن جمال نفسها هو الذى يستهويك لا فتنة الجسد. وليكن صوتك فى سمعها كصوتها فى سمعك رحمة وخيراً لا شراً وإغراء

ستألم حين لا تطفئ المتعة نار قلبك المتأججة، فما نفعك بمتعة تطفئ الإيمان وتميت القلب؟ إنما نفعك بالألم الذى يرهف حسك، ويضىء نفسك، ويخضع جسدك. إنما نفعك فى البقاء لا الفناء، فى بقاء نارك متأججة، ونفسك نيرة، بقاء للحب الذى لا تعرفه المادة ولا ينبغى أن تعرفه، بقاء لروحانية البشر التى تتمثل فى الألم، الألم يا صديقى ولوعة الحب والكآبة التى تذيب جسدك كالشمعة لتحترق وتضىء

كل أولئك يا صديقى عناصر تجعل منك الإنسان المنشود لا الإنسان الموجود.

(م . د)

مجلس أدباء

طالما رغبت أن أرى هذا المجلس حتى أتيح لى هذا الحظ العظيم فقادنى إلى حيث ينعقد أحد الرفاق ؛ وكان المجلس لحسن حظى ليلة خففت إليه حافلاً لم يغب عنه كما علمت إلا واحد أو اثنان ممن يشتركون فى حلقته

وأنا رجل طالما أحسنت الظن بالأدباء حسن ظنى بالكتب فيما سلف وإن كان أكثرهم ليزعمون أنى متكبر أعيش فى علبة لأنى ظللت حتى تلك الليلة لا أعرف أكثر هؤلاء إلا فى آثارهم

جلست بين هؤلاء الشباب صامتاً أنقل بصرى من وجه إلى وجه، وأتبين الأشخاص من أحاديثهم، وهم قد وضعوا أنفسهم بحكم رسالتهم فى مركز وسط بين الملائكة والناس ؛ ولم تمض لحظة حتى عرفت من كلامهم أولاً أنهم جميعاً شعراء ؛ ثم تبين لى بعد ذلك أن كلا منهم يسمو فى فنه على الباقين حتى ما يلحق به أحد وإن كان لا يصرح أحدهم بذلك ، وإنما يشير إلى ذلك المعنى فى لباقة عجيبة

وأعجبنى منهم لعمر الحق أنهم كانوا يديرون بينهم كؤوس الثناء بدل كؤوس الصهباء إن جاز فى ذوقهم هذا التعبير . فهذا يثنى ما وسعه الثناء على القصيدة الأخيرة لجاره ؛ وذلك يمتدح ديوان صاحبه حتى ليجعله من مفاخر العصر ومآثر الجيل، وفلان يستزيد فلاناً من طرفه ... وهكذا يتبادلون بينهم الثناء حتى لا يتركون معنى من معانيه

ولكننى ما لبثت على الرغم من ذلك أن تبينت فى حلقتهم أحزاباً ، وساعدنى على فهم ذلك ما عرفته من سالف كتاباتهم ، فهذا شخص أعرفه من قبل قد جعل لصاحب له الزعامة فيما كتبه عنه ، وأراه فى المجلس يقبل عليه إقبالاً شديداً فما تبدو منه نكتة إلا انطلق وراءها مقهقهاً مستحسناً مهما بلغ من تفاهتها ، وما يبدى رأياً إلا انحاز فيه إليه مهما خالف فيه كل قياس وخرج به على كل ذوق ... وهذا شخص آخر يعلم أن بين فلان وفلان حقداً وهو يحقد على أحدهما فيما أعرف فلا يزال يمتدح الآخر بكل ألوان المديح ، وألمح أنا الامتعاض على وجه المغضوب عليه فأفطن وأبتسم

وأعجب لهذا التناقض الغريب ، وهم كانوا قبل ذلك يبدون لى وقد ألف الفن بين قلوبهم وملأها بالمحبة ... ! وينتقل بهم الحديث من تبادل الثناء ثم من اللمز إلى المباهاة والمفاخرة . فهذا تنهال عليه رسائل الإعجاب حتى ليترك بعضها دون قراءة لكثرتها ؛ وذلك يتهافت على قصائده كبار الملحنين ولكنه يضن بها ضنًّا بالشعر عن التكسب والتبذل ؛ وثالث يقول فى خجل مصطنع إنه يشار إليه فى كل ناد ويتهامس الفتيان والفتيات باسمه ، ويرد عليهم من يذكر كيف يحرص على مودته أصحاب الصحف اليومية والأسبوعية على اختلاف نزعاتها ؛ ويسكت أحدهم تاركا لصاحبه المفتون به أن يتلو عليهم من حالاته ما يعجبون معها لشذوذه المحير، ذلك الشذوذ الذى يصل به إلى الجنون، ولكنه بأى حال لا يفسر إلا بأنه شذوذ العبقرية وجنون الملهمين ، وإن كانوا ليعلمون أنه متكلف يبلغ غاية السخف فى تكلفه ...

واجتمع هؤلاء الشباب على رأى واحد ، وذلك هو رأيهم فيمن سموهم شيوخ الأدب فأولئك عندهم قوم نالوا من الشهرة ما لا يستحقون ، وليس فيهم إلا من يحقد على الشباب وعبقرية الشباب وطموح الشباب ، ولذلك فهم يحاربونهم ويضعون فى طريقهم العقبات ، ولكن الغلبة فى النهاية لا شك للجيل الناهض ...

ويحمل هؤلاء الملهمون حملة صارمة على هذا البلد الجاحد ويألمون لحظهم فيه ، ويتساءلون: لم أطبقت الغفلة على هذا الجيل إلى مثل هذا الحد ؟ فإذا مال الحديث إلى أصل من أصول الأدب رأيت بين هؤلاء الذين يرمون الجيل بالغفلة تناقضاً وتبايناً واختلافاً شديداً حتى ليصعب على من يقرأ مثل آرائهم أن يصدق أنهم يعيشون فى عصر واحد وفى بلد واحد ، وكيف يلتقى هؤلاء على ذوق أدبى والمسألة بينهم رياء وتقارض ثناء؟

وبعد أفلا يسهل على بعد أن بلوت مبلغ صدق هؤلاء بعضهم تلقاء بعض أن أصدق ما يقال عن مبلغ صدق أكثرهم فى فنهم؟ ذلك الصدق الذى ترى من آياته أن ينظم أحدهم فيما رأى من جمال الربيع وهو لم يخرج من مكتبه ، أو يصف الشروق والغروب والليل فى القرية وهو لم ير مدى عمره قرية ، أو يتوجد ويتوجع ويشتكى إلى ملهمته وهى لا توجد إلا فى مخيلته ! لقد أسرفنا فى الهزل فمتى نجد ، وبالغنا فى الاستهتار فمتى نستحى ؟

« عين »